

عن «الثقافة الجديدة» مرة أخرى

محمد بنيس

الدراسة، وخاصة ما يتعلق منه بالمغرب. وأتأسف لكوني لا أجد وقتاً يسمح لي بكتابة وجهة نظر تضيء جانباً يختلف تماماً عما قدمته الدراسة من رؤية للمجالات في ماضيها البسيط وراهنها الجنائزي. فأنا، الآن، أستعد للسفر، ومضطر للغياب لفترة طويلة، وهو ما قد يضيع علي فرصة هذا الرد السريع.

إن دراسة محمد براءة وعبد القادر الشاوي تصمت عن التعريف بكل من مجلتي «أقلام» و«أنفاس». وهذا بحد ذاته يحمل دلالة كبرى في سياق تناول حالة المجلات الثقافية التاريخية، خاصة وأن هاتين المجلتين من أقوى المجلات الغربية في الستينيات والسبعينيات. أما عدم التطرق إلى المجلات الصادرة باللغة الفرنسية، مثل Souffles وIntegral وSignes du Présent، إلى جانب الصمت عن مجلات أخرى كـ «الزمان المغربي» و«الجسور» وغيرها فإنه يضيف إلى دلالة التصنيفات بساطة التحليل وتقليديته.

٣ - هناك ملاحظات عامة أسجلها في البداية. إن عبد القادر الشاوي ليس دكتوراً، ولا أعلم من وضع هذا اللقب الجامعي إلى جانب اسمه. فهذا الفعل يتناقض مع الدفاع عن القيم التقدمية وعن قيم التغيير، لأن إضافة لقب الدكتور لعبد القادر الشاوي سرقة للقب رسمي. لا يهمننا لقب الدكتور هذا بحد ذاته، ولكن سرقة هذا اللقب الرسمي للدفاع به عن قيم مغايرة. ثانياً، إن هذه الدراسة لا تقدم لنا أي جهاز إحصائي يقربنا من الوقائع الملموسة، فلا هي تعطينا عدد النسخ المطبوعة من كل مجلة، ولا مجموع الأعداد الصادرة من كل واحدة منها، ولا فكرة عن قرائها. دراسة المجلة تتطلب التخصيص، بالمفهوم العلمي، في شؤون الثقافة المغربية الحديثة، وشؤون المجالات، وعلم اجتماع الثقافة، والسميائيات. ولا شيء من هذا يتوفر في الدراسة. ويبدو كملاحظة ثالثة، أن تأثير عبد القادر الشاوي في هذه الدراسة ضئيل، لأنه لا يوجد، موضوعياً، ما يجمع بين الباحثين. إنها لا يشكلان خلية بحث علمي جامعي، ولا عاشا تجربة ثقافية مشتركة

١ - يبدو أن الوعي الشقي الذي يستبد بالمتقنين العرب ويوجّه الثقافة العربية، يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى أحد ثوابت راهننا الثقافي. الوعي الشقي مدخل يمكننا من خلاله رصد هذه «الفتنة الكبرى» التي انغلقت فيها الثقافة العربية. إنه اكتمال الازدواجية النفسية التي نعاني منها ثقافة ومثقفين، دون أن نجد دراسات نفسية أو اجتماعية تختص بالتشخيص على الأقل.

ما يتميز به هذا الوعي الشقي هو أن يدمر كل شيء إيجابي في الثقافة (وغير الثقافة بالتأكيد) من أجل تمجيد الرداءة، ثم يشرع في تحليل دمارنا الثقافي ويدعو، في الوقت ذاته، إلى «تغيير الاتجاه نحو المستقبل»، إلى الديمقراطية والانفتاح والتعددية والاختلاف والسؤال، وجميع ما تشاء من القيم والمبادئ والاختيارات التي عمل بكل وسائله على تدميرها أو المساهمة فعلياً في تدميرها. لذا فالمخربون للثقافة العربية هم المتحدثون عن أزمته.

٢ - لم أنشغل، بعد، بتأمل هذه الخلاصة التي كنت وصلت إليها من قبل، ولكنني وجدتها أكتبتها، مباشرة، بعد قراءتي للدراسة التي قدمها محمد براءة وعبد القادر الشاوي عن «حالة المغرب العربي» للدوريات الثقافية، وذلك أثناء الندوة التي أقامها «المجلس الوطني للثقافة والعلوم والفنون» في الكويت حول الدوريات الثقافية العربية في وضعها الراهن وأفاق المستقبل، بين ٧،٩ ماي (أيار) الماضي، ونشرتها مجلة «الآداب» مشكورة في عددها ٧ - ٩ (١٩٩٠) الصادر أخيراً، فلولا هذا النشر ما كان باستطاعتي الاطلاع عليها والتعرف على أعمال الندوة.

لا شك أن مجموع الدراسات المقدمة إلى الندوة تحتاج لقراءة نقدية حتى يتضح لنا جانب من وضعنا الثقافي. لن أفعل ذلك، فهناك من هو مهياً أكثر مني. وما سأقتصر عليه، هنا، هو الفقرة المكتوبة عن مجلة «الثقافة الجديدة» التي أنشأتها سنة ١٩٧٤ إلى جانب مثقفين من بينهم عبد القادر الشاوي. فقرة واحدة سأركز عليها، ومع ذلك فسأحاول الربط بينها وبين التحليل العام الوارد في

على تحويل المجلة «إلى إطار خصب لتفاعل الآراء والاجتهادات». لأن العنوان ذاته اشتركت فيه «الثقافة الجديدة»، دون علم سابق، مع غيرها في كل من العراق واليمن ومصر، ومع ذلك فإن «سحر» هذا العنوان في المغرب لم يكن له المفعول ذاته في المجلات العربية الأخرى.

ولأن العنوان لم يكن كافياً وحده فإن الدراسة تقرّب بما هو أبعد، فهي تقول «وقد اهتمت هذه المجلة، على غرار مثيلاتها في الأقطار المغربية الأخرى، بنشر الدراسات الأدبية والفكرية والمقالات النقدية إلى جانب النصوص الإبداعية، ولكنها تميزت أيضاً بانفتاحها على كثير من الكتاب والمبدعين العرب ونشرت لبعضهم نصوصاً تتسم بالجدّة...». إن «الثقافة الجديدة» ليست، إذن، مجرد عنوان، بل إنجاز له ملموسه.

ويبدو، لاحقاً، أن المجلة لا تملك هذا وحده. فهي تلتقي مع مجلات أخرى في دور تاريخي متميز. جاء في الدراسة: «ومثل هذا الاستخلاص يمكن أن يعمم على تجربة الدوريات الثقافية العربية حيث نجد أن لحظات الانعطاف والتحويلات اللافتة للنظر في الثقافة العربية كثيراً ما اقترنت بظهور مجلات شكلت منبراً لبلورة قيم جديدة أو مغايرة». وفي هامش ص. ٤٩ تثبت الدراسة قائمة بالمجلات العربية من بينها «الثقافة الجديدة» التي كانت مجرد عنوان ثم تحولت، سحراً وإعجازاً، إلى أحد المنابر التي تأسست «لبلورة قيم جديدة أو مغايرة».

٥ - هذا الوجه الأول للتناقضات يكشف عن «الثناء الذي لا بد منه» (والغواني يغرهن الثناء كما يقول شوقي!) ومع الوجه الثاني نبلغ نواة إدانة «الثقافة الجديدة» في مسألتين:

أ - الثقافي والسياسي:

تستمر الدراسة في تناولها لمجلة «الثقافة الجديدة» على النحو التالي: «ثم إن المجلة تبنت في بعض مراحل تطورها فكرة «الحداثة» وحاولت التنظير لها أسوة ببعض زميلاتها من المجلات الشرقية (مواقف مثلاً...). ولكن الدعوة ظلت نخبوية ولم تصادف ما كان يؤمله المشرفون عليها من تجاوب بين القراء والمهتمين، وخصوصاً عندما بدأت المجلة تلح، وأحياناً بنزعة «تبشيرية» مكرورة، على وجوب الفصل القاطع بين الثقافي والسياسي، فابتعدت تدريجياً عن الاختيارات الأولية التي رصدتها لانطلاقها في البدء».

هذه أحكام تهدف إدانة «الثقافة الجديدة» بدون أي حجة. فالدراسة لا تقدم لنا استشهاداً واحداً (على عكس ما قامت به مع مجلات أخرى)، وهي بالتالي تلغي كل ما افتتحت به حديثها عن المجلة. لن أناقش كل نقطة على حدة. سأوضح التهافت في نقطة هي مبتغى التقييم، وأقصد بها العلاقة بين الثقافي والسياسي.

إن الإعلان الصريح عن علاقة الثقافي بالسياسي ثم من خلال «بيان الكتابة» الذي نشرته بإمضائي الشخصي في العدد ٨٩ (١٩٨٠) ثم في شهادتي «اتحاد كتاب المغرب - مؤتمر التراجعات».

في تسيير المجلات ليقدم لنا دراسة معرفية مشتركة. والملاحظة الأخيرة التي تنتج عن كل ذلك يمكن أن تأخذ صيغة أسئلة: هل بحث محمد براءة عمن يساعده في إنجاز دراسة بسيطة كهده لإعادة كتابة التاريخ على هواه، هو الذي قاده إلى إشراك عبد القادر الشاوي فيها، أم هو حاجة براءة إلى الشاوي ليمرر أحكامه ويعطيها مصداقية أم هو بحثه عن حجة سياسية؟ أم عن حجاب؟

٤ - لا تعين هذه الدراسة إشكالية ولا سؤالاً معرفياً، كما لا يتوفر لها تجانس في المنهج والتحليل. تأكيدنا على ضرورة تعيين إشكالية أو سؤال معرفي هو ما يبعدها عن المطالبة بالتأريخ للمجلات الثقافية في المغرب، وهو أيضاً ما جعلنا نصف الدراسة بالتبسيط، أي أنها تختار الانطباعات والإسقاطات متفاعلة مع الاختزال والإلغاء. فلغير المغرب اللباقة والتسامح، وخاصة ليبيا (تفسير الواضحات...). وللمجلات المغربية الإدانة أو التمجيد، حسب المواقع، مع المحافظة على لعبة «التوازنات» المفيدة، وهي التي طمأنت بها الدراسة مجلة «دراسات سيميائية أدبية لسانية». ويكون تناول الدراسة لمجلة «الثقافة الجديدة» عنصراً يفجر «الموضوعية». إن «الثقافة الجديدة» التي كانت، كما يشهد المهتمون والمثقفون على ذلك، أهم مجلة ثقافية في المغرب العربي بين ٧٤ و٨٤، واستطاعت، بالتضحيات الشخصية وارتباط القراء بها، الوصول إلى العدد ٣١، خصتها الدراسة بأحكام الإدانة التي لا هوادة فيها ولا تسامح، فيما هي بحثت لكل مجلة أخرى، من بين المجلات المذكورة، عمّا يلائمها مع صيغ التبرير والتمجيد.

ورغم الإصرار على الإدانة، سقط تناول «الثقافة الجديدة» في جملة من التناقضات. فالمجلة، حسب الدراسة، صدرت في مرحلة «غياب المنابر الثقافية الجادة». وهذا الاعتراف بفرغ الساحة لم يظن به الباحثان، لأن الدراسة خصت «آفاق»، الصادرة سنة ١٩٦٣ عن اتحاد كتاب المغرب، بما يخص به الأسياد أنفسهم (وبالمناسبة فإن بيير أبي صعب كتب مؤخراً في «اليوم السابع» عن «آفاق» كمجلة يصدرها اتحاد الكتاب لأول مرة، وهذا دليل قاطع على شهرة هذه المجلة وعظمة ماضيها!) فـ «آفاق»، تبعاً للدراسة «ظلت على الدوام منبراً لنشر الانتاج المغربي وساهمت بدور كبير في إجلال صورة أدب يواكب التحولات في المغرب». إذا كانت «آفاق» قامت بكل هذا الدور العجيب فكيف يمكن أن تكون «الثقافة الجديدة» أتت في مرحلة «غياب المنابر الثقافية الجادة»؟

وتكتفي الدراسة باعتبار عنوان «الثقافة الجديدة» هو كل ما لديها من رصيد. هكذا تقول الدراسة: «فجاءت الثقافة الجديدة»، على الأقل من خلال العنوان الذي اقترحته لميدان عملها... هذا العنوان وحده، العنوان الذي يسرق عنوة ما تحتاجه المرحلة، هو ما جعل المجلة بسر غامض «تفعل في الواقع، ولذلك تحولت بعد مدة إلى إطار خصب لتفاعل الآراء والاجتهادات». وسيكون من العبث أن نفهم كيف أن عنواناً بمفرده يمتلك كل هذه القدرة «الخارقة»

وفي هذين النصين، ثم في دراسات لي لاحقة، كنت دائماً أتطرق إلى نقد تبعية الثقافي للسياسي لا إلى الفصل القاطع بينهما كما تدعي الدراسة.

هناك، إذن، تشويه للآراء التي دافعت وما زلت إلى الآن أذافع عنها، ولكن هناك، أيضاً، معلومات خاطئة. فإذا كانت الدراسة تشوه هنا آرائي الشخصية، وقد أصبحت الآن معممة في الخطاب الثقافي العربي، مشرقاً ومغرباً، فإن الدراسة تصدر حكماً ثانياً على المجلة من خلال المعلومات الخاطئة عندما تؤكد أن الدعوة للحدثة (ولا أجد وقتاً لإعطاء المعلومات الدقيقة بهذا الخصوص) «ظلت نخبوية»، ولم تصادف ما كان يؤمله المشرفون عليها من تجاوب بين القراء والمهتمين.

إن أبسط معنى للتجاوب هو تعامل القراء والمهتمين مع المجلة. بعد العددين ١٩ و ٢٠ الوارد فيها نقد تبعية الثقافي للسياسي كانت مبيعات المجلة أصبحت تتراوح بين ٥٠٠٠ و ٨٠٠٠ نسخة توزع في المغرب فقط، كما أن العدد الخاص بـ «السلفية والخطاب السلفي» صدرت منه طبعتان، وأصبحت المجلة توزع مع العدد ٢٧ في تونس. وهذا العدد من النسخ، وكذلك إصدار الطبعة الثانية، والتوزيع خارج المغرب، لم تبلغه، حسب علمي، أي مجلة مغربية سابقة على «الثقافة الجديدة». وظل ارتباط القراء والمهتمين بالمجلة قوياً، داخل المغرب وخارجه، إلى أن أصدرت وزارة الداخلية أمراً بتوقيفها إلى جانب غيرها (ويبدو أن الدراسة تفتقد شجاعة التصريح بتوقيف السلطة للمجلة، فتكتفي بتعبير «القرار الإداري» الغامض إلى حد بعيد). والدليل الإضافي على ارتباط القراء والمهتمين بـ «الثقافة الجديدة»، ومن خلالها بتوجهها الثقافي ومواقفها النظرية والتحليلية، هو المبادرة الرائعة التي قام بها أخي وعزيزي الشاعر محمود درويش حين استضاف العدد ٣١ من «الثقافة الجديدة» على صفحات العدد ٨١ من مجلة «الكرمل»، بعد أن حال أمر التوقيف دون إصدار العدد في المغرب. وقد وزعت «الكرمل» ٧٠٠٠ نسخة من هذا العدد في المغرب وحده، وكان محوره «المسألة الثقافية في المغرب». فلم أقبل عليها القراء بهذه الدرجة وبذلك السرعة، داخل المغرب وخارجه؟

هذه معلومات تكذب ما جاء في الدراسة من حكم على مرحلة التصريح بنقد تبعية الثقافي للسياسي. وإذا كنت أتجنب، الآن، إعطاء التفاصيل في كل جزئية بمفردها، فإني لا بد أن أشير إلى أن الدراسة، وللأسف الشديد، تصل في نهايتها إلى تبني الموقف النقدي الذي تعلمته من «الثقافة الجديدة» دون أن تدخله في نسيج التحليل. تقول الدراسة: «وفي هذا المستوى تنتصب العلاقة بين الثقافة والسياسة بالمعنى العميق: أي مواجهة مشكلات المجتمع المشتركة في راهنتها وصورورها. والمجلة الثقافية - حسب التصور الذي أشرنا إليه - مهياة لأن تكون لحمة هذه العلاقة النقدية بين الثقافة والسياسة».

إنني أفرق بين الثقافة والسياسة من ناحية والثقافي والسياسي من ناحية ثانية. فالمصطلحات مختلفة، وباختلافها تتحدد التصورات. إن عدم تبعية الثقافي للسياسي يتطلبه راهننا الثقافي بإلحاح، ولكن الدراسة بقدر ما تتبنى شيئاً مغايراً، وهو «العلاقة النقدية بين السياسة والثقافة»، فإنها تسقط في تمجيد مجلتين، أولاهما هي «المشروع» التابعة مباشرة للاتحاد الاشتراكي، ولا ينشر فيها إلا من يرضى عنهم الحزب والحزبيون؛ وثانيتها هي «آفاق» التي مرت بمرحلة تبعية للسياسي، ولحزب الاتحاد الاشتراكي، بعد أن تولى برادة رئاسة الاتحاد. والقول بالعلاقة النقدية بين السياسة والثقافة في مثل هاتين المجلتين، أو لدى محمد برادة، وهو أمر باطل يعتمد تدبيح الخطابات المليئة بالاختزال والتناقضات، والمنفصلة عن الواقع، عن الممارسة اليومية.

ب - غياب المشروع الثقافي:

والحكم الثاني الصادر في الدراسة بغاية إدانة «الثقافة الجديدة» هو أن هذه المجلة بدون مشروع ثقافي. جاء في الدراسة: «على أن الناظر في مجمل أعداد المجلة لا يستطيع الوقوف على مشروع واضح في «دائرة الثقافة الجديدة» سعت إلى بلورته طوال مدة صدورهما (١٩٧٤ - ١٩٨٤) إلا ما كان من بعض الدعوات التي تسرب بين الحين والآخر إلى صدر افتتاحياتها دون أن يكون لذلك أي أثر في اختيار موادها أو اقتراح محاور عملها.

بهذا الحكم ينفضح كل ما قيل من قبل في صيغة «الثقافة الجديدة» الذي لا بد منه»، فالمجلة لم تعد ذلك الذي كانته كـ «إطار خصب لتفاعل الآراء والاجتهادات»، ولم تعد من بين تلك المجالات التي «شكلت منبراً، لبلورة قيم جديدة أو مغايرة». سأترك القارئ يحكم على هذا الوجه الآخر للتناقضات. ولي أن أوضح غيره. هذه الإدانة الثانية تصدر عن عقلية الإلغاء، فضلاً عن العمى النظري والثقافي (ولا نقصد المعنى الذي يعطيه ميشيل فوكو للعمى).

إن «الثقافة الجديدة» حظيت بثقة أسماء ثقافية رفيعة على المستوى المغربي والعربي والدولي. فهذا عبد الله العروي نشر في العدد الأول من المجلة، ثم شارك فيها لاحقاً كل من عبد الكبير الخطيبي وعبد الله إبراهيم ومحمد عابد الجابري وعبد اللطيف اللعبي والطاهر بن جلون، وكذلك أنور عبد الملك وأدونيس ومحمد أركون وهادي العلوي والياس خوري وصنع الله إبراهيم وكمال أبو ديب وبرهان غليون، إضافة إلى جاك ديريدا ورولان بارط وتشومسكي بموافقة شخصية من طرفهم، كما نشرت نصوصاً لكل من لوسيان غولدلمان وبعض الشكلايين الروس وغرييل غرسيما ماركيز وبورخيس، إلى جانب دراسات سبق أن شهدت عليها الدراسة.

كيف يمكن لمجلة أن تكون بدون مشروع، وهي التي نشرت لجميع هؤلاء كما نشرت لنخبة موسعة من أجود الكتاب والمبدعين المغاربة اعتماداً على قيمتهم الإبداعية والمعرفية؟ كيف يمكن لمجلة لا

بقراءة منهجية، فبالأحرى أن تكون واعية بأدواتها واستراتيجيتها .
٦ - كان بالإمكان أن نقبل هذه الأحكام على «الثقافة الجديدة»
لو أنها كانت معممة على سائر مجلات المغرب العربي، أو المجلات
المغربية، ولكن الدراسة تهدف قبل كل شيء إلى إعادة ترتيب البيت
الثقافي في المغرب، بإلغاء هذا وتوشيح ذلك، حسب المواقع التي
تستديم تبعية الثقافي للسياسي مغربياً وعربياً. ذلك هو تمجيد الرداءة
حتى تكون لها السيادة في المؤسسات وتوجيه حياتنا الثقافية. كل هذا
لا يتم بغير استبعاد الطاقات الخلاقة وكتبها، وتشويه الواقع وتزييف
التاريخ. فهنيئاً للرداءة بمجدها وانتصاراتها!

المحمدية - المغرب

مشروع لها أن تنجح في إصدار ملفات عن «الفنون التشكيلية في
المغرب» و«السينما العربية والافريقية» و«الكتابة» و«الفلسفة العربية
الحديثة» و«السلفية والخطاب السلفي» و«النقد الأدبي» و«التضامن
مع الشعبين اللبناني والفلسطيني» بعد الاجتياح، و«القصة القصيرة
في أمريكا اللاتينية» و«المسألة الثقافية في المغرب»؟ كيف يمكن لمجلة
أن تكون بدون مشروع وهي التي بادرت بالانفتاح على جميع
الفاعليات دون أي حجز حزبي أو ايديولوجي كسول، على هذا
الكاتب أو ذلك، لهذه الفترة أو تلك؟

لا تقدم لنا الدراسة أي تعريف لتصور المشروع، ولا تعطي أي
حجة على توفر مجلات أخرى، وفي مقدمتها «آفاق» و«المشروع»،
على مشروع ثقافي. عبث في عبث أن تطالب بوضوح نظري أو

صدر حديثاً

نجيب محفوظ الطريق والصدى

تأليف

الدكتور علي شلش

كانت رحلة نجيب محفوظ مع الكتابة طويلة وشاقة. ونظراً لطول هذه الرحلة وتنوع مسالكها، مال
الباحثون إلى تقسيمها إلى محطات أو مراحل. ولا شك أن أولى هذه المراحل كانت أشق الجميع، لا لأنها
الأولى وحسب، وإنما لأنها - أيضاً - كانت بحثاً عن طريق محدد، بمقدار ما كانت سعياً وراء هوية في
الأدب (...).

على هذا الأساس أقيمت دراستي، وقسمتها إلى ثلاثة فصول: فصل لدراسة ما سمّيته مرحلة
البحث عن طريق من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٩، وآخر لدراسة ما سمّيته مرحلة الطريق من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٢،
وثالث لدراسة الصدى النقدي للمرحلتين المتداخلتين في الوقت ذاته، كما وضعت هاتين المرحلتين
المتداخلتين، وما رافقهما من صدى نقدي، داخل الإطار الاجتماعي والثقافي للفترة الزمنية موضوع البحث
(...).

المؤلف

دار الآداب